صراع مع الموت

بقلم: نزار بهاء الدّين الزّين

كنت في زيارة لأحد أقاربي، حيث تصادف وجود أبنائه وبناته والأزواج والأحفاد. .

الأحفاد؟، ألا ما أروعهم! كانوا يقفزون من حوله، ومن فوقه، ومن بين ساقيه كحمائم أليفة. هذا يهاجمه مصارعا تارة، وملاكما تارة أخرى، فيتّخذ في مواجهته موقف المدافع، وذاك يطلق عليه رصاصه الوهميّ من بندقيته الخشبيّة، فيتصنّع الإصابة ملقيا نفسه فوق أقرب أريكة، فاغرا فيه مدليّا لسانه، جاحظا عينيه ، وتلك تسترق خطاها النّاعمة لتفاجئه من الخلف قافزة على ظهره متشبّثة بكتفيه، فيثبت يديها الصّغيرتين براحتيّ يديه الحانيتين، ثمّ يدور بها بضع دورات حتّى يدوخها ويدوخ، فيقعا معا على الأرض ضاحكين.. ورابعة تشدّه مستنجدة ليحلّ لها مشكلتها مع إحدى ألعابها. و ثمّة صغير أخذ يلحّ عليه طالبا إعادة رواية إحدى الحكايات المثيرة . كانت سعادته بهم وسعادتهم به فوق كلّ وصف.

أمّا جهان ابنته الكبرى، فكانت مكتئبة، ومن بينهم جميعا ظلّ

obeikandl.com

فمها منكمشا وجبينها مقطّبا، وعيناها طافحتين، وإن لم تفضّا، لولا أن علا عويل أصغر أبنائها من الدّاخل فانفجرت باكية، وهي تدمدم : " هذا فوق احتمال البشر. لم يدعني أغفو طوال اللّيلة الفائتة. هذا ظلم فكأنّ المرأة وحدها خلقت للشّقاء ". ثمّ التفتت إلى زوجها متمتمة ببعض غضب : " أنا بدوري امرأة عاملة يا سليم. أنا لم أنجبه وحدي، فكلانا شركاء. ساعدني بعض الشّيء في تحمّل المسؤوليّة".

هنا شدّتني بعيدا عن عتابها الباكي الذي أثاره رضيعها المشاكس أو ربما المريض، نظرة رمقني بها قريبي مشفوعة بابتسامة.. حملتا أكثر من معنى، وحفّزتا ذاكرتي للحال؛ لتبرز على شاشتها الخفيّة لقطات مكثّفة وسريعة من حكاية جهان . جهان الطّفلة ذات السّنوات العشر. جهان المريضة، وهي تصارع الموت. جهان الموظّفة النّشطة، ثمّ جهان العروس فالأمّ، و إلى جوارها مع كلّ صورة وجهان حانيان وجه قريبي هذا، ووجه زوجته المرحومة.

لم ينتبه والدا جهان إلى أنّ الأمر غير عادي، إلّا بعد أن أخذ سعالها يتكرر ويتلاحق ترافقه أعراض اختناقية؛ كانا قد باشرا علاجها – شأنهما شأن معظم ذوي الدّخل المحدود – وفق أعراف الطّبّ الشّعبيّ من مستحضرات العطّارين؛ إضافة إلى

الحجامة و التّبخير، ثمّ انتقلت الوالدة – بناء على نصائح عجائز العائلة – إلى بيوت المشعوذين. فمن قائل بأنها أصيبت بعين حسود، ومن قائل إنّ شيطانا قد تقمّصها، فاستجابت الوالدة لكلّ إرشادات هؤلاء – على الرّغم من عدم قناعتها، كمثقّفة، بكلّ ذلك – وذلك دون التماس أيّ تحسّن. وعلى العكس، فقد تفاقم المرض فأقعدها ثمّ أخذ سعالها يتّخذ شكل نوبات حادّة مع ارتفاع حرارة جسمها، ولكن عندما قذفت دما، شعر الوالدان بخطر حقيقيّ ، فاستدعيا عندئذ الطّبيب.

نظر إليهما الطّبيب بإشفاق، ولكن ببعض ارتباك ثمّ أخبرهما بأنّه التّدرّن الرئويّ أو السّلّ الرّئويّ، وأضاف : " هو في مرحلته الثّانية. فإن أفلحنا بإيقافه تكتب لها النّجاة وإلا " ...

بكت الوالدة و أجهشت. أمّا الوالد، فقد أصابه ذهول لم يفق منه إلّا عندما انتابت جهان موجة جديدة من السّعال، فهرع إلى ملابسه يرتديها، ويخرج على عجل ليحضر ما وصفه الطّبيب من أدوية.

و بروح تعاونيّة نادرة، قسما واجباتهما الطّارئة بينهما. فهناك أبناء آخرون يجب الحرص على وقايتهم، و تعليمات الطبيب بهذا الخصوص يجب أن تنفّذ بدقّة. فغرفة جهان محظورة تماما على

إخوتها، وكذلك استخدام أدواتها وملابسها . إنّها حالة طوارئ باللّون الأحمر.

و تعلّمت الوالدة طرق التّعقيم، وضبط مواعيد الدّواء بأنواعه، وقياس الحرارة والنبض وتسجيلهما على شكل خطوط بيانيّة، وتعلّم الوالد الحقن العضليّ ثمّ الوريديّ، وكذلك تعوّدا على تناوب السّهر إلى جانبها، فحوّلا بذلك بيتهما إلى مستشفى حقيقيّ.

و بكلّ هدوء و شجاعة حصرا ما يمكن الاستغناء عنه بدءا من مصاغ الأمّ، وانتهاء بمقتنيات الزّينة، كالمزهريّات والفضيّات والأوعية الصّينية التي اعتاد النّاس على اقتنائها، ثم أخذا يبيعانها شيئا فشيئا ليتحوّل ثمنها إلى غذاء مركّز وعلاج مكثّف، وأمل عنيد بأن ينقذا ابنتهما جهان من براثن الموت.

لم تحرز جهان تقدما ملحوظا، فلجأ الوالد إلى طبيب آخر ذاع صيته مؤخرا. استدعاه وبعد إجراء فحص دقيق مستعينا بالتّحاليل المخبريّة، قرّر لها عقارا جديدا باهظ الثمن يتمّ تناوله بالحقن، بحيث كانت كلّ ثلاثة عبوات منه تعادل نصف مرتبه كمهندس طوبغرافي في إحدى الدّوائر الحكوميّة.

صدمة جديدة وعبء جديد جعلا الوالدة تلقي برأسها على صدر زوجها مجهشة بالبكاء، وأخذ الوالد يربّت على كتفيها

بحنان، وهو يداري دمعه. كان ذلك أوّل موقف عاطفيّ يجمعهما منذ أشهر، امتزج فيه حبّهما بدموعهما، إلّا أنّه موقف حفّزهما على مواصلة النّضال. فمنذ اليوم التّالي قابل الوالد رئيسه شارحا له وضعه، مطالبا بعمل إضافيّ يساعده على مواجهة محنته، فاعتذر المدير، إلّا أنّه أرشده إلى مهندس صديق، فعمل لديه – و هو راض و ممتن – كرسّام هندسيّ.

و ببطولة استوعبت الأمّ كافّة الأعباء الدّاخلية لتفسح لزوجها مجال الانصراف إلى عمله الإضافيّ المرهق. كانت إذا فرغت من شؤون المنزل واحتياجات الأطفال ثمّ أسلمتهما إلى اللعب أو الفراش، تنصرف إلى جهان، فتجالسها وتقصّ عليها الحكايات والنّوادر. كانت جهان تمسك بيد أمها، وتتشبث بها كأنّما لتستمد منها الطّمأنينة والأمان. كانت تتصوّر خطرا يتربّص بها كخطر الذّئب في قصّة ليلى والذّئب، أو خطر حلم يعقوب، أو خطر منكر ونكير . و تسأل أمّها: " ماذا لو كانت لي ذنوب، هل حقّا سوف يعذباني ؟.. ماذا لو وجدت نفسي وحيدة في قبري ؟ كثيرا ما أحلم يا أمّي أنّني وحيدة في قبري أرتجف بردا و هلعا .! "

أسئلة تتجاوز سنّها ولا عجب، فقد كانت من المتفوّقين قبل أن

يقعدها المرض، وكانت منذ نعومة أظفارها فلسفيّة التّساؤلات وغزيرتها، و ها هي الآن تتفلسف حول الموت وما بعده. فقد أدركت معاناة والديها، ومتاعبهما الماديّة و الجسميّة، وتابعت بحزن وإحساس بالذّنب مساومات والدها مع تجّار الأثاث المستعمل وأصغت بأسى إلى همسهما حول ما تبقّى من قائمة الموجودات المرشّحة للبيع وشيكا، ثمّ أخذت ترصد تأخّر والدها المسائيّ، وسهره أحيانا حتّى الفجر، وهو يرسم ويرسم..

ولاحظت عينيه بألم، وهما تزدادان إرتخاء، وعدم تمكّنه من التّحكّم بعضلات جفنيه، فانطلقت تتحرّك كيفما شاءت، فأيقنت أن ذلك كلّه ما كان ليحدث لولا مرضها، فكان إحساسها بالذّنب يضاعف من معاناتها من مرضها وخوفها من استفحاله، لولا تلك اليد الدّافئة، والعينان الناضحتان بالحبّ والوجه الباسم الذي كان يكلؤها برعايته الحانية ليل نهار.

و ذات يوم، قال لهما الطّبيب : " لقد أفلحت بتعطيل المرض إلا أنّني لم أفلح – للأسف – حتّى الآن بإيقافه، وأنصح بنقلها إلى مصحّ صدريّ في أحد المنتجعات الجبليّة، حيث الهواء النقيّ والعناية المتخصّصة " .

مصاريف جديدة و أعباء جديدة، وكالعادة واجهها الوالدان

بشجاعة. كانت أعمال البناء قد تضاعفت مؤخّرا، كما افتتحت الجامعة كليّة الهندسة بفروعها، فراجت تجارة الأدوات و المعدّات الهندسيّة، ووجد فيها الوالد فرصة لدخل قد يسمح بتنفيذ توصية الطّبيب المكلفة. عمل بداية كوسيط (سمسار) ثمّ اكتشف إمكانيّة العمل لحسابه الخاصّ، و إذ لاحظ أنّ الأمر مربح، بادر لفوره إلى إدخال جهان إلى مصحّ صدريّ معروف، فاضطرت الأسرة – نظرا لبعد المصح – إلى استئجار منزل في قرية مجاورة، و هذا ما أتاح للوالدة أن تزور ابنتها كلّ يوم مشيا على الأقدام توفيرا للمصاريف.

و في يوم من تلك الأيّام العصيبة ، ما كادت أم جهان تلتقط أنفاسها قادمة لزيارة ابنتها حتّى وجدتها في غاية الاضطراب.

قالت جهان، وهي تبكي بحرقة : " تقيّأت نجوى زميلتي في الغرفة.. تقيّأت دما ثمّ شهقت مرتين .. فقط مرتين ، ثم ماتت. ماما أنا خائفة .. ماما يخامرني شعور أنّني التّالية ."

هدّأتها أمّها ثمّ طلبت من الطّبيب المناوب أن يبدد مخاوفها، فأكّد لها أنّها في طريقها إلى الشّفاء. وبعد أقلّ من أسبوع، همست جهان بأذن أمّها، وهي تعانقها : " لم ينتبني السّعال منذ الأمس يا أمّي ."كانت تلك العبارة بداية رحلة النّقاهة لبضعة أشهر

أخرى تكلّلت بالشّفاء التّام.

تذكّرت ذلك كلّه في ثوان.. تذكّرت خروج جهان من المصحّ.. تذكّرت عودتها إلى المدرسة، والتهام ما فاتها من علوم.. تذكّرت حفل زفافها، وتذكّرت والدتها التي ما أن اطمأنت على نجاتها من براثن الموت حتّى عاجلها الموت . ثم تذكّرت كفاح والدها و مثابرته وتصميمه على إنقاذ ابنته، ثمّ التفت نحو جهان، فهمست لها بسرّي : " و الآن تتذمّرين من وعكة ألمّت برضيعك يا جهان ؟ أنسيت كم سهر والداك من ليال أمام سريرك، وهما يصارعان الموت لحسابك ؟"

obeikandl.com